

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ - ١٥٨٧

الملكة الجنية

وسط المسرحية المتشابكة ، مسرحية الإصلاح الدينى فى اسكتلنده مع السياسة فى عصر اليزابث ، جرت مأساه ماري ستيوارت ، بكل ما فيها من سحر الجمال والحب المشبوب والصراع الدينى والسياسى ، والقتل والثورة والموت البطولى ، وكاد أسلافها ، أن يؤكدوا لها خاتمة عنيفة. وكانت ابنة ستيوارت الخامس ملك اسكتلنده ومارى أميرة جيز واللورين وفرنسا . وحفيده مرجريت تيودور ابنة هنرى السابع ملك إنجلترا ، ومن ثم كانت بنت أخت ومن باب التساهل - بنت عمه ، « ماري اللعينة » واليزابث ، وكانت باجماع الآراء الوريثة الشرعيه للتاج الإنجليزي ، إذا توفيت اليزابث دون عقب ، وفى رأى هؤلاء الذين اعتبروا اليزابث ابنة زنى ، ومن ثم غير مؤهلة للملك - مثل الكاثوليك (وهنرى الثامن فى وقت ما) ، أنه كان لا بد أن ترتقى عرش إنجلترا ١٥٥٨ ، ماري ستيوارت لا اليزابث . ولتصبح المأساه يقينا ، أباحت ماري ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) - نقول أباحت لأتباعها ولوثائق الدولة أن يقبوها ملكة إنجلترا . فثمة ادعاء فارغ ساد منذ أمد طويل بأن يكون ملوك فرنسا ملوكاً على إنجلترا أيضا ، كما يكون ملوك إنجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا ، ولكن الادعاء فى هذه الحالة قارب حقاً معترفاً به بصفة عامة . وما كان لأليزابث أن تطمئن على تاجها طالما بقيت ماري على قيد الحياه . وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة أو النظرة الصائبة للأمور ، ولكن الملوك قل أن يطأطئوا رءوسهم إلى هذا الحد .

وعرضت الممالك على ماري ، في مدة سنة من ولادتها . فقد جعلها موت أبيها في بحر أسبوع من مولدها ، ملكة إسكتلنده ، واقترح هنري الثامن ، أملا منه في ضم إسكتلنده كمقاطعة ملحقة بإنجلترا - اقترح أن تخطب الطفلة إلى ابنه إدوارد وترسل إلى إنجلترا . وتربى فيها ، مع افتراض أن تكون بروتستانتية ، لتكون ملكة مع ابنه إدوارد . ولكن بدلا من هذا ، قبلت أمها الكاثوليكية عرض هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٨) أن تزوجها لأكبر أبنائه (الدوفين) . وحماية لماري من نحتظافها إلى إنجلترا . أسرعوا بها وهي في سن السادسة إلى فرنسا ، حيث بقيت هناك ثلاثة عشر عاما ، وتلقت العلم مع أولاد الأسرة المالكة ، وتأصلت فيها الروح الفرنسية تماما ، حيث كانت نصف فرنسية بحكم الدم . ولما نضجت واكتمل شبابها ، تجلت كل مفاخر الأنوثة في جمال القسامات والقوام ، وحدة الدهن ، والكياسة المرحة في السلوك والحديث ، وغنت غناء عذبا ، وعزفت على العود عزفا جيدا . وتحدثت باللاتينية ، وكتبت شعرا تكلف الشعراء إطراءه ، ونخفت قلوب الحاشية (لرؤية وجهها النقي الناصع البياض كالثلج » (برانتوم (١)) « وشعرها المقصوص المضفر » (رونسار (٢)) ، ورشاقة يديها النحيلتين ، وصدرها الممتلئ . وحتى أن لوبيتال الوقور الرزين ذهب إلى أن مثل هذا الجمال لا يمكن إلا أن يكون لأحد الآلهة . (٣) وأصبحت أكثر الشخصيات جاذبية وأعظمها كياسة في أكثر بلاط أوربا تهديبا وصقلا . ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت ولي عهد فرنسا (الدوفين) في ٢٤ أبريل ١٥٥٨ . وما أن بلغت السابعة عشرة ، حتى أصبحت ، بارتقائه العرش ، ملكة على فرنسا . ويبدو أن كل آمال حلم خيالي قد أصبحت حقيقة .

ولكن في ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرنسوا الثاني (زوجها) بعد حكم دام سنتين . وفكرت ماري التي باتت أرملة وهي في سن الثامنة عشرة ، في أن تأوى إلى ضيعة في تورين ، لأنها أحبت فرنسا . ولكن إسكتلنده في تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها من فرنسا بوصفها حليفة . ورأت الحكومة الفرنسية أن من واجب ماري أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصلي إلى التحالف مع فرنسا ، وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد . وارتضت ماري كارهة أن تترك

مباهج المدنية الفرنسية ورفاهيتها ، لتعيش في اسكتلنده التي تصورتها أرض الهمجية والبرودة . وكتبت إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلنده ، ولكنها لم تذكر لهم أنها في عقد زواجها ، حولت ملك اسكتلنده إلى ملوك فرنسا إذا توفيت دون عقب . وافتتن بها النبلاء ، البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء ، ودعاها برلمان اسكتلنده لتتبوأ عرشها . وطلبت إلى الزابث امتياز المرور بأمان عبر إنجلترا ، فرفض طلبها ، فأبحرت ماري من كاليه في ١٤ أغسطس ١٥٦١ ، مودعة فرنسا بالدموع ، محذقة في الشاطئ الذي يتراجع من خلفها ، حتى لم يبق أمامها شيء إلا البحر .

وبعد خمسة أيام ألقى السفينة مراسيها في « ليث » ثغر ادنبره واكتشفت ماري اسكتلنده .

٢ - اسكتلنده ١٥٦٠ - ١٥٦١

كانت أمة ذات أصول عريقة وأساليب عتيقة ، قديتها الأراضي الجبلية الوعرة في الشمال بنظام إقطاعي ، يتحكم فيه أمراء مستقلون تقريباً ، يحيون حياة نصف بدائية قوامها الصيد والرعي ، واستئجار الأرض القابلة للزراعة . أما الجنوب فقد تميز بأرض منبسطة خصبة بفضل ماء المطر ، ولكنها مظلمة معتمة بسبب شتائها الطويل والبرد القارس الذي يشل الحركة . فهنا شعب يكافح ليخلق نظاماً أخلاقياً وحضارياً ، من حماة الأمية واختلاط الأنساب والفساد والتمرد على القانون والعنف ، شعب أعمته الخرافات ، وإرسال السحرة إلى الإعدام حرقاً ، يفتش في عقيدة دينية متشددة عن حياة أقل قساوة ومشقة . ورغبة في موازنة قوة البارونات التي مزقت أوصال البلاد ، كان الملوك ساندوا وشجعوا رجال الدين الكاثوليك وأغدقوا عليهم الثروات ، مما جرهم إلى الفساد وقبول الرشوة وعدم المبالاة ومعاشرة الخليلات (٤) . وتحرق النبلاء لهفأ على ثروة الكنيسة ، فانتقصوا من قدر رجال الدين ، بملء الوظائف الكنيسة بأبنائهم الخبراء بشئون الدنيا ، ونادوا بالإصلاح الديني ، وجعلوا البرلمان الاسكتلندي الذي تحكموا فيه سيداً للكنيسة والدولة على حد سواء .

وكان الخطر الخارجي أقوى حافز على الوحدة الداخلية . ولم تحس إنجلترا

بالطمأنينة في جزيرة يشاركها فيها الإسكتلنديون الذين لم يروضوا بعد . وسعت من حين لآخر ، بالطرق الدبلوماسية أو الزواج أو الحرب ، إلى إخضاع إسكتلنده للحكم البريطاني . وأشار سيسل على اليزابث بمساندة النبلاء البروتستانت ضد مملكتهم الكاثوليكية ، ومن ثم أصبح إسكتلنده ممزقة ، ولا تعود تشكل خطراً على إنجلترا أو دعامة لفرنسا . وفوق ذلك يمكن لزعماء البروتستانت ، إذا حالفهم التوفيق ، أن يخلعوا ماري ، ويتوجوا نبيلاً بروتستانتياً ، ويحولوا إسكتلنده كلها إلى البروتستانتية . وراود سيسل بصفة خاصة حلم توحيد إسكتلنده على هذه الصورة مع إنجلترا بإغراء اليزابث بالزواج من مثل هذا الملك (٥) . فلما أرسلت فرنسا إلى إسكتلنده قوة لإخماد البروتستانت سارعت اليزابث بإرسال جيش لحمايتهم وطردهم الفرنسيين . ولما حاقت الهزيمة بفرنسا في ميدان القتال ، وقع مفاوضة في إسكتلنده في أدنبره (٦ يولية ١٥٦٠) معاهدة مشؤومة لا تنص على خروج الفرنسيين من إسكتلنده فحسب ، بل على عدم مطالبة ماري بأى حق في عرش إنجلترا . كذلك ، ورفضت ماري ، بناء على مشورة زوجها فرنسوا الثاني ، التصديق على المعاهدة . وعلمت اليزابث بذلك .

وكان الوضع الديني مضطرباً ، بنفس القدر . ذلك أن « برلمان الإصلاح الديني » الإسكتلندي الذي التأم ١٥٥٠ ، ألغى الكاثوليكية رسمياً ، وقرر أن تكون البروتستانتية الكلفنية دين الدولة ، ولكن ماري لم تصدق على هذه القرارات البرلمانية حتى تصبح قوانين نافذة المفعول في البلاد . وظل القساوسة الكاثوليك يشغلون معظم الوظائف الكنسية ذوات الدخول في إسكتلنده . وكان نصف النبلاء ، بابويين ، وظل جون هاملتون الذي يجرى في عروقه الدم الملكي ، يذهب إلى البرلمان بوصفه زعيم الكاثوليك في إسكتلنده . ومهما يكن من أمر فإن نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة في أدنبره وسانت أندروز وبرت وسترنج وأبردين ، انحازت إلى الكلفنية ، بفضل الوعاظ المخلصين المتحمسين ، بزعامة جون نوكس Knox .

وفي العام الذي سبق مجيء ماري أخرج نوكس ومعاونوه كتاباً في قواعد السلوك والاضباط « Discipline » يحدد مذهبهم وأغراضهم ، فالديانة لا تعنى

إلا البروتستانتية ، و « الربانيون والأتقياء » لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما « الوثنية » فإنها تشمل « القديسين ، والتضرع إلى القديسين وعبادة الصور . . . والاحتفاظ بها » ، أما « المتمسكون بهذه الأشياء البغيضة والداعون إليها ، فلا ينبغي أن يفلتوا من عقاب القضاة والحكام المدنيين . « وكل مذهب أو نظرية » تتنافى مع الإنجيل ، يجب « القضاة عليها قضاءً تاماً ، على أنها لعينة تحول دون خلاص الإنسان (٦) » . أما القساوسة فينبغي أن ينتخبوا في الجامع ، وعليهم أن ينشئوا المدارس ويفتحوها لكل أبناء الرب ، مع خضوعها لرقابة الجامعات الإسكتلندية — سانت أندروز ، جلاسجو ، أبردين . ويجب أن تخصص أموال الكنيسة الكاثوليكية والعشور الكنسية المستمرة لحاجيات القساوسة البروتستانت وتعليم الشعب ومعونة الفقراء . وعلى « الكنيسة الإسكتلندية الوطنية » ، الجديدة — لا السلطة المدنية — أن تصدر تشريعات الأخلاق ، وتفرض العقوبات على مخالفتها — السكر والحشع والتجديف والإسراف في الثياب ، ظلم الفقراء والفحش والفسق والزنى ، وكل من يعارض المذهب الجديد ، أو يتغيب عمداً عن طقوسه ؛ يحال إلى السلطة المدنية ، مع توصية من الكنيسة الإسكتلندية الوطنية بإعدامه (٧) .

على أن اللوردات الذين سيطروا على البرلمان أبوا أن يقرروا « قواعد السلوك والانضباط » (يناير ١٥٦١) . ولم يستسيغوا قيام كنيسة وطنية قوية مستقلة . وكانت لهم خططهم الخاصة في استخدام أموال الكنيسة المنحلة. وظل « كتاب قواعد السلوك » هدفاً ونبراساً يهتدى به في تطوير الكنيسة الإسكتلندية الوطنية وتنميتها . ولما أخفق نوكس في إقامة حكومة لاهوتية يتولاها قساوسة يدعون أن لهم حق الكلام نيابة عن الرب ، بذل جهداً جباراً في إصرار بالغ ، في تنظيم الكهنوت الجديد ، وإيجاد الاعتمادات اللازمة لتدعيمهم ، وانتشارهم في كل أرجاء إسكتلندا ، لمواجهة رجال الدين الكاثوليك الذين ظلوا يؤدون وظائفهم ، وخلقت قوة العقيدة في مواعظه التي كان يلقيها وحماسة طائفته — نقول خلقت منه قوة في أدنبره وفي الحكومة . وكان لزاماً على الملكة الكاثوليكية ، ماري ، أن تصني حسابها معه ، حتى تستطيع تثبيت دعائم ملكها .

٣ — ماري ونوكس ١٥٦١ — ١٥٦٥

اتخذت ماري الترتيبات لتصل إلى إسكتلندا . قبل الموعد المضروب بأسبوعين ، حيث خشيت بعض المقاومة في دخولها إلى البلاد ، ولكن ما أن انتشر في العاصمة خبر وصولها إلى ليث حتى اكتظت الشوارع بالأهالي ، الذين عرّتهم الدهشة ليروا ملكتهم عادة جميلة مرحة منعممة بالحوية ، لم تبلغ بعد التسعة عشر ربيعاً . وحياتها معظمهم وهتفوا لها وهي على ظهر جوادها الصغير إلى قصر هوليرود . Holyrood وهناك رحب بها اللوردات ، بروتستانت وكاثوليك فخورين بأن يكون لإسكتلندا ملكة فاتنة إلى هذا الحد ، يمكن يوماً ما ، بشخصها أو بشخص ابن لها ، أن تخضع لإنجلترا الحكم ملك إسكتلندي .

وإن صورتها^(٨) اللتين وصلتا إلينا لتؤكدان شهرتها بأنها من أجمل نساء عصرها . ولسنا ندرى إلى أي حد استطاع الرسامان اللذان نجعل الآن اسميهما ، أن يمثلها ، ولكننا نلاحظ في اللوحتين كليهما ، القسمات الوسيمة واليدين الناعمتين والشعر الكستنائي الغزير الذي سلب ألباب البارونات وكتاب السير . ومع ذلك فإن هاتين الصورتين لا تكادان تكشفان لنا عن الجاذبية الحقيقية للملكة الصغيرة — روحها المرحة ، وثغرها الباسم . وحديثها العذب البارع ، وحماسها المتدفق ، وروح الألفة والحنان والمودة فيها ، وتلهفها على الحب . وإعجابها المتهور بالأقوياء من الرجال ، وكانت طامتها الكبرى أنها أرادت أن تكون امرأة وملكة معاً — أي أن تحس بدفء العاطفة ، دون أن تنقص من امتيازات الملك . لقد فكرت في ذاتها بلغة قصص الفروسية — حسناوات مزهوات ولكنهن وديعات رقيقات ، عفيفات شهوانيات في وقت معاً ، وأهل للهفة المتقدة والألم الحسى ، والإشفاق الرقيق ، والولاء الذي لا تفسده الرشوة ، والشجاعة التي تظهر عند الشدة . وكانت بارعة في ركوب الخيل ، تقفز بجوارها فوق الأسوار ، وتتخطى الحنادق في اندفاع وتهور ، وتستطيع احتمال مشاق الحملات دون كلل ولا شكوى . ولكنها لم تكن من الناحية الجسمية أو العقلية صالحة لأن تكون ملكة ، فقد منيت بالاعتلال والضعف في كل شيء اللهم إلا قوة الأعصاب ، وكانت عرضة لنوبات من الإغماء

تبدو وكأنها صرع ، مصابة بعللة لم يتيسر تشخيصها ، غالباً ما شلت حركتها وجعلتها تتلوى من شدة الألم^(٩). ولم يكن لها ذكاء الرجال الذي تميزت به اليزابث ، وكانت في الغالب بارعة حاذقة . ولكن قل أن اتسمت بالحكمة ، وكثيراً ما أطلقت العنان للهوى والعاطفة فأفسدتا الدبلوماسية ، وأظهرت في بعض الأحيان قدراً كبيراً من ضبط النفس والجلد واللباقة ، ثم عادت فأودت بهذا كله ، نتيجة الانفعال السريع واللسان السليط . لقد كان جمالها نقمة عليها ، ولم توهب المقدره العقلية . وكان في أخلاقها قضاء عايبها .

وبدلت ماري جهداً مضمناً لتواجه الأخطار المتشعبة في موقفها ، متأرجحة بين اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكى المتفسخ الذى لم يرع حرمة عقيدتها التى تدعو إلى الثقة فيهم . واختارت لزعامه مجلس شورى الملكة اثنى من البروتستانت : أخاها غير الشقيق ، الابن غير الشرعى ، لورد جيمس ستيوارت (لورد مورى فيما بعد) . وكان فى سن السادسة والعشرين ، ووليم ميتلند لثنجتون ، وكان فى سن السادسة والثلاثين ، وكان فيه من الذكاء أكثر مما يَحتمله خلقه ، وقد نحول من جانب إلى جانب . مؤثراً تسوية الأمور والحلول الوسط بين الأطراف المتنازعة ، حتى وفاته . وكان هدف سياسة لثنجتون راعياً ممتازاً - وهو توحيد إنجلترا واسكتلنده لأنه البديل الوحيد للعداء الذى يودى بالبلدين كليهما ، وفى مايو ١٥٦٢ أوفدته ماري إلى إنجلترا ليرتب لقاء بينها وبين اليزابث : ووافقت اليزابث ، ولكن مجلس الشورى اعترض ، خشية أن أى تسليم مهما كان غير مباشر بحق ماري فى عرش إنجلترا ، قد يشجع الكاثوليك على محاولة قتل اليزابث . وتبادلت الملكتان الرسائل فى مودة دبلوماسية ، على حين كانت كل منهما تحاور وتداول وتتحين الفرصة للانقضاض على زميلتها ، أو كانتا تلعبان معاً لعبة القط والفأر .

وفى الأعوام الثلاثة الأولى حالف التوفيق حكم ماري فى كل ناحية ، فيما عدا الدين . وعلى الرغم من أنها لم تستطع قط أن تطيب نفساً بمناخ إسكتلنده أو ثقافتها ، فإنها سعت : بحفلات الرقص والتمثيلات الممتعة والجمال ، أن تجعل من قصر هوليرود "باريس" صغيرة فى منطقة مجاورة للمنطقة المتجمدة الشمالية . وتحرر

معظم اللوردات وأطلقوا لأنفسهم العنان في ظل مرحها وبهجتها . وتذمر نوكس وزمجر بأنهم سحرُوا . وفوضت الملكة موري ولشجنتون في تدبير شؤون المملكة ، فقاما بالمهمة خير قيام . وبدا ، لبعض الوقت ، أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلاً بفضل تنازلات الملكة . ولما حثها مندوبو البابا على إعادة الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل في الوقت الراهن ، وإلا تدخلت الزابث بالقوة . ورغبة في تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت ماري في ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات في الديانة القائمة ، ولكنها طلبت أن يرخص لها هي نفسها في ممارسة الشعائر سرّاً ، وأن يقام لها القداس في الكنيسة الملكية الخاصة (١٠) . ويوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك . وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها وطالبوا « بإعدام القسيس الذي يعبد الأصنام (١١) » ، ولكن موري حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن . . . وفي يوم الأحد التالي استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين في كنيسة أن قداساً واحداً كان أكثر إساءة إليه من عشرة آلاف عدو مسلحين (١٢) .

وأرسلت الملكة في طلبه ؛ تستعطفه وتناشده التسامح . وفي قصرها ، في ٤ سبتمبر ، ألتقت العقيدتان لقاء تاريخياً ، لم تصل إلينا تفاصيل ما جرى فيه إلا من تقرير نوكس نفسه (١٣) . وانتهرت ماري لإثارتها الفتنة ضد سلطة أمها الشرعية ؛ ولكتابته « هجومه العنيف » ضد « جماعة النسوة الخاطئات » ، الذي أساء إلى كل السيدات اللائي تولين الملك . فأجاب « بأنه إذا كان استنكار الوثنية معناه إثارة الرعايا ضد حكاهم ، فهلا يمكن التماس العذر فيه والصفح عنه ، فإن الله قد ارتضى . . . أن أكون واحداً (من بين الكثيرين) ممن أوصدوا أبواب هذه المملكة ضد باطل العقائد البابوية وضد خداع هذا الروماني عدو المسيح ، البابا ، وغروره وظلمه . أما الهجوم العنيف . فإنه يا سيدتي قد كتب بصفة أخص ضد المرأة الفاسقة في إنجلترا ماري تيودور . ويستطرد تقرير نوكس :

قالت الملكة : هل تظن أن الرعايا قد يقومون في وجه حكامهم ؟
فأجاب نوكس : إذا تجاوز الحكام حدودهم ، فلا ريب في أنهم يلقون
المقاومة ، حتى ولو بالقوة .

ونهضت الملكة من مقعدها ، وقد تولتها الدهشة . . ثم قالت في النهاية :
حسنا ، إذن ، أرى أن رعاياي سوف يمثلون لك وليس لي .

فقال نوكس : إن الله يحرم على أن آخذ على عاتقي أن أمر أحدا بطاعتي ،
أو أن أترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاءون . ولكن رسالتي أن يلتزم الأمراء
والرعايا جميعهم بطاعة الله . وهذا الخضوع لله وللكنيسة المحيطة - ياسيدتي -
هو اسمى منزلة يمكن أن يحظى بها الانسان على هذه الأرض .

فقالت : ولكنكم لستم الكنيسة التي سوف أرهاها وآخذ بيدها ، سوف
أدافع عن كنيسة رومه ، لأنني أعتقد أنها كنيسة الله الحققة .

فقال نوكس : لن تشكل مشيئتك سببا ياسيدتي ، ولن يجعل مجرد تفكيرك
أنت من هذه الفاجرة الداعرة الرومانية القرينة الحققة الطاهرة التي تحمل بلا دنس ،
ليسوع المسيح . . . ولا تعجبي ياسيدتي لأنني أطلق على رومه ، المومس الفاجرة ،
لأن هذه الكنيسة ملوثة تلوثا تاما بكل ألوان الفجور الروحي .

فقالت : لا يحدثني قلبي بهذا .

ولو كان هذا الحديث منقولاً نقلاً أميناً لكان مواجهة محزنة بين الملكية
والديمقراطية اللاهوتية ، وبين الكاثوليكية والكالفنية . ولو كان لنا أن نصدق
نوكس ، فإن الملكة تلقت توبيخات دون أن تقابل الأذى بمثله ، ولم تزد على
أن قالت :

« لقد تجاوزت الحد في إيلاي » وانصرفت إلى العشاء ، وذهب نوكس إلى
كنيسته . وناشد لشنجتون نوكس أن يعامل الملكة برفق أكثر ، لأنها أميرة يافعة لم
تخضع لأي تحرير أو إغراء (١٤) .

ولم يشعر أتباعه بأنه كان قاسيا عليها . ولما ظهرت في المحافل العامة قال بعضهم
بأنها وثنية ، وصاح فيها الأطفال بأن الاستماع إلى القديس خطيئة . وأصدر حكام

ادبره قرارا بنى الأشخاص الأقدار (كذا) « الرهبان ، أعضاء الأخوات الدينية ، الفساوسة الراهبات ، الزناة (١٥) » . فعزلت ماري هؤلاء الحكام وأمرت بإجراء انتخابات جديدة . وفي سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس والدم ينزف من رعوسهم ، « على حين انفجرت هي باكية ، حيرة وعجزا (١٦) » . واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية وطالبت بمنعها من حضور أى قداس فى أى مكان ، ولكن لوردات مجلس الشورى أبوا أن يستجيبوا لهذا . وفى ديسمبر ١٥٦١ قام خلاف حاد بين المجلس والكنيسة حول توزيع إيرادات الكنيسة . فخصص للقساوسة البروتستانت السدس ، وللملكة سدس آخر ، واختص رجال الدين الكاثوليك (ولا يزالون يشكلون الغالبية) بثلثي الإيراد . فأوجز نوكس هذه التهمة فى قوله : أعطى للشيطان ثلثان ، وقسم الثلث الأخير بين الشيطان والرب (١٧) . وقبض الكهنة البروتستانت فى المتوسط مائة مارك (٣٣٣٣ شلنات ؟) سنويا (١٨) .

واستمر رجال الكنيسة الوطنية ، طوال العام التالى ، ينددون بالملكة ، وقد روعتهم التمثيليات والعريضة والصخب وحفلات الرقص والمغازلات التى تجرى فى بلاط ماري ، واقتصدت الملكة فى ملاحيتها ومباذها استجابة للاحتجاجات ، ولكن القساوسة أحسوا بأن عليها أن تفعل شيئا أكثر من هذا ، لأنها ما زالت تشهد اللمس . وكتب أحد المعاصرين : « أ- جون نوكس يرغبى ويزيد ويدوى كالرعد من فوق المنبر ، إلى حد أنى لا أخشى شيئا أكثر من أنه يوما ما سيفسد علينا كل شىء ، إنه يسود ويتحكم ، ويخشاه الناس جميعا (١٩) » . وهنا أيضا اشتبك الإصلاح الدينى مع النهضة .

وفى ٥٥ ديسمبر ١٥٦٢ استدعت ماري نوكس ، واتهمته ، فى حضرة موري ولتنجتون وغيرهما ، ببذر بذور الكراهية لها فى نفوس أتباعه . ويقول هو بأنه رد عليها بقوله : « إن الأمراء والحكام درجوا على اللعو واللهو وتضييع الوقت سدى أكثر منهم فى قراءة أعظم كلمات الله والاستماع إليها ، وأن العابثين واللاهين أعظم قيمة فى أعينهم من الحكماء والرجال الجادين الوقورين ، الذين قد يستطيعون

بشيء من النصح الكريم أن يستأصلوا بعض الغرور الباطل والزهو الكامن في نفوس الناس جميعاً . ولكنها صفات تتأصل وتقوى في نفوس الأمراء والملوك بفعل التعليم السيئ » فما كان جواب الملكة - على حد قول نوكس نفسه ، إلا أن قالت (في حلم غير معهود فيها) : « إذا سمعت عني ما يغضبك تعال وأبلغني إياه ولسوف أصغى إليك . » فرد عليها : « أنا ياسيدتي ، مكلف برسالة عامة في كنيسة الرب ، وعينت من قباه لأحاسب على خطايا ورذائل الناس جميعاً . ولست مكلفاً بأن آتي لكل فرد على حدة لأظهره على إثمه ، فهذا عمل لا ينتهي . وإذا تفضلت جلالتك بحضور المواعظ العامة ، فلا يخامرني أي شك في أنك ستعرفين تماماً ما أريد وما أبغض . »

وتركته ينصرف في سلام ، ولكن استمر الصراع بين العقائد . وفي عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، كانوا قد خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لو ثبتتهم (٢١) . وسجن بعضهم ، وهرب آخرون واختفوا في الغابات فأرسلت ماري في طلب نوكس مرة أخرى ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون ، فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم ، وإلا فإنه يعتقد أن هؤلاء البابويين كانوا جديرين بتلقيهم درسا . « فقالت : إني أعد بتحقيق رغبتك » . ودامت صداقتهما لبعض الوقت . ويأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون قسيساً آخرون لإقامتهم القداس . وحكم عليهم بالسجن . وابتهج الكهنة البروتستانت بهذا . ولكن بعد أسبوع ، (٢٦ مايو ١٥٦٣) عندما شهدت ماري ووصيفاتها البرلمان في أبيهي حلة ، وهتف بعض الناس « بارك الله ذلك الوجه الجميل » ندد هؤلاء الكهنة البروتستانت بتبرجهن وأذيال ثيابهن وماتدلى منها من حواش . وكتب نوكس : لم تشهد اسكتلنده مثيلاً لهذه الأبهة البغيضة في السيدات من قبل (٢٢) .

وترامى إلى سمع نوكس بعد ذلك بقليل أن لثنجتون كان يحاول عقد زواج بين ماري ودون كارلوس ابن فيليب الثاني ملك أسبانيا . وإحساساً منه بأن مثل هذا الزواج سيكون ضربة قاضية على البروتستانتية في أسكتلنده ، أعلن نوكس عن رأيه بصراحة في موعظة ألقاها على النبلاء الذين شهدوا البرلمان :

والآن أيها اللوردات ، وللقضاء على كل شيء ، أسمع عن زواج الملكة . . . واسمحوا لي أن أقول أيها اللوردات إنه حينما يعترف نبلاء اسكتلنده للسيد المسيح برضاهم عن أن يكون أحد الكفار (وكل أتباع البابا كفار) على رأس مملكتم ، فانكم بذلك تبذلون أقصى ما في وسعكم لإبعاد يسوع المسيح عنها (٢٣) .

وفقدت الملكة صوابها ، فاستدعته ، وسألته — كما يقرر هو نفسه : « ماشأنك بزواجي ؟ ومن أنت في هذه الدولة ؟ » فأجاب جوابه المشهور « فرد ولد في هذه البلاد نفسها ياسيدتي . ومع أنني لا إرل ولا لورد ولا بارون ، في هذه الدولة ، فقد اختارني الله (مهما كنت حقيراً في عينيك) عضواً نافعا فيها (٢٤) » فانفجرت ماري باكية ، وأمرته بالانصراف .

وبلغت جرأة نوكس ذروتها في اكتوبر (١٥٦٣) ذلك أنه أحاط مرة أخرى بالكنيسة الملكية الخاصة جمع من الناس احتجاجا على القداس الذي كان على وشك أن يقام ، ودخل أندرو آرمسترونج وباتريك كرانزتون إلى الكنيسة وأرهبوا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة التي لم تكن في الكنيسة آنذاك ، بمحاكمة هذين الرجلين الكلفنيين بتهمة اقتحام حرمة الخاص . وفي اكتوبر أرسل نوكس كتابا يأمر فيه « الاخوة من كل الطبقات ، الذين آثروا طريق الحق » بأن يشهدوا المحاكمة . وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظيمة ، ودعا نوكس للمثول للمحاكمة أمامها . وحضر نوكس (٢١ ديسمبر ١٥٦٣) ولكن حشدا هائلا من مؤيديه تجمع في الفناء ، وعلى الدرجات « حتى وصل إلى باب القاعة التي جلست فيها الملكة ومجلسها » ودافع هو عن نفسه دفاعا مجيدا إلى حد أن المحكمة برأته ، وقالت الملكة « تستطيع يامستر نوكس أن تعود إلى دارك الليلية . » فأجاب هو « أدعو الله أن يظهر قلبك من رجس البابوية (٢٥) » .

وفي يوم أحد السعف ١٥٦٤ تزوج « الرسول » الذي لا يقهر ، وهو في سن التاسعة والخمسين ، زوجته الثانية ، مرجريت ستيوارت ، التي تربطها

بالمملكة ، صلة قرابة بعيدة ، وهي في سن السابعة عشرة ؛ وبعد سنة واحدة ، تزوجت الملكة للمرة الثانية .

٤ - الملكة تقع في شرك الغرام ١٥٦٥ - ١٥٦٨

من ذا الذي تستطيع الملكة أن تختاره زوجا لها ، دون أن تقع في ورطة دبلوماسية ؟ أميرا أسبانيا ؟ . ولكن لا بد أن تحتج فرنسا وانجلترا ويغضب البروتستانت في اسكتلنده . « فرنسا » ؟ ولكن انجلترا لا بد أن تقاوم ، حتى يجد السيف ، تجدد التحالف الفرنسي الاسكتلندي ، « أميرا نمسويا ، الأرشيدوق شارل » ؟ ولكن نوكس أنذر وحذر من فوق المنبر ، من الاتحاد مع « كافر » كاثوليكي ، كما أن اليزابث أخطرتها بأن الزواج من آل هابسبرج - الأعداء القدامى لآل تيودور - يعتبر عملا عدائيا .

وفي لحظة من الانفعال قطعت ماري العقدة الدبلوماسية . ففي اكتوبر ١٥٦٤ رأى ماثيو ستيوارت أنه قد آن الأوان العودة إلى اسكتلنده - وكان ماثيو ، إرل لنوكس يعتقد أنه المرشح التالي لعرش اسكتلنده بعد ماري ، وكان قد فقد كل أراضيهم بمساندته هنري الثامن ضد اسكتلنده ، وهرب إلى انجلترا تفاديا لانتقام الاسكتلنديين آنذاك . ولحق به في اسكتلنده بعد قليل ابنه ، هنري ستيوارت لورد دارنلي البالغ من العمر تسعة عشر عاما ، والذي هو ، عن طريق والدته ، من نسل هنري السابع ملك انجلترا ، مثل الملكة ماري . وفتنت ماري بالشباب الأمرد وأعجبت بمهارته في لعب التنس والعزف على العود ، وتجاوزت عن غروره ، بوصفه أمرا يلتزم مع طلعه الجميلة ، واندفعت في الغرام قبل أن تستطيع أن تبين فيه الغباء والحمق . وفي ٢٩ يولية ١٥٦٥ ، وعلى الرغم من احتجاج اليزابث ونصف أعضاء مجلسها الخاص ، اتخذت ماري من هذا الفتى زوجا ، وأسمته ملكا . واستقال موري من المجلس وانضم إلى أعداء الملكة العنيدة الجامحة .

ونعمت ، لشهور قلائل ، بالسعادة المشوبة بالمتاعب . لقد استبد بها توقها الشديد إلى الحب طيلة السنوات الأربع التي قضتها أرملة . وقد أثلج صدرها أن تجد من يرغب فيها . لقد منحت زوجها حبها بلا قيد ولا شرط ، وأغدقت عليه كل

شيء بلا حدود ، قال توماس راندولف سفير اليزابث : « لقد أولته كل ألوان الجلال والرفعة وألقاب الشرف ، ولا ينشرح صدرها لأي رجل لا يرضى عنه الملك الفتي ، وتنازلت عن إرادتها من أجله هو (٢٦) . » ولكن الحظ السعيد أفسد عقل الفتي . فأصبح دكتاتوراً مستبداً وقحاً وطالب بأن يشارك الملكة سلطانها ، وفي نفس الوقت أقام الحفلات الصاخبة وأسرف في الشراب ، وأبعد المجلس ، وأصابته نوبات من الحمق ، وارتاب في أن ماري ترتكب الزنى مع دافيد رتشيو .

ومن يكون رتشيو هذا ؟ أنه موسيقار إيطالي كان قد قدم إلى إسكتلندا ١٥٦١ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، في معية السفير (من سافوي) . ولما كانت ماري دوالة بالموسيقى ، فقد ألحقتهم بخدمتها كمنظم للمهرجانات الموسيقية ، ولقد سعدت بنشاطه وسرعة بديهته ، وتنوع ثقافته التي اكتسبها من القارة (أوروبا) ، ولما كان يعرف الفرنسية واللاتينية معرفة جيدة ، ويكتب بلغة إيطالية جميلة ، فقد اتخذته كذلك سكرتيراً لها ، وسرعان ما عهدت إليه بإعداد مراسلاتها الأجنبية وكتابتها . وأصبح مستشاراً لها ، وبات قوة لا يستهان بها ، وأسهم في توجيه السياسة . وجلس إلى مائدة الملكة يشاركها غذاءها ، وشتلاها أحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل . ومنذ رأى النبلاء الإسكتلنديون أن رتشيو قد نحاها عن مكانتهم وحل محلهم ، وارتابوا في أنه يناصر الكاثوليك ، فإنهم تأمروا على تدميره .

وكان الايطالي الداهية في بداية الأمر قد سحر لب دارنلي نفسه ، فكانا يسرحان ويمرحان معاً وينامان معاً ، ولكن على حين أن المهام المنوطة برتشيو وامتيازاته وتكريمه والحفاوة به زادت ، فإن حماقة دارنلي هبطت به إلى مستوى العجز السياسي ، فانقلب جب الملك للخادم الذي أصبح وزيراً إلى مقت وبغض . ولما حملت الملكة ماري ذهبت الظنون بالملك إلى أنها حملت بولد رتشيو . واعتقد راندولف في صحة هذا بل إنه في الجيل التالي أبدى هنري كواتر ملاحظة ساخرة فقال إن جيمس الأول ملك إنجلترا لا بد أن يكون « سليمان الحديث » طالما أن أباه هو دافيد العازف على القيثارة (٢٧) . وإذا لعب الويسكي يوماً برأس دارنلي ، وأهلب جرأته ، انضم إلى

إرل مورتون ، والبارون روثن وغيرهما من النبلاء في تدبير قتل رتشيو ، ووقعوا « عهداً » تعاهدوا فيه على تدعيم البروتستانتية في إسكتلندا ، وعلى منح دارنلي « تاج الزواج » - أي كل حقوقه وسلطاته بوصفه ملكاً على إسكتلندا - وأن يكون له الحق في العرش عند وفاة ماري . ووعده دارنلي بحماية الموقعين على « العهد » من نتائج «أية جريمة » قد ترتكب ؛ وبإعادة موري وسائر اللوردات المنفيين (٢٨) .

وفي ٦ مارس ١٥٦١ كشف راندولف لورد سيسل النقاب عن المؤامرة (٢٩) . وفي ٩ مارس نفذت : واقتحم دارنلي حجرة الملكة حيث كانت تناول العشاء مع رتشيو وليدى أرجيل ، وأمسك بالملكة واحتجزها ، واندفع مورتون وروثن وآخرون إلى الحجرة ، واقتادوا رتشيو خارجها ، رغم احتجاجات واعتراضات لا غناء فيها من ماري ، وعلى السلم كالوا له الطعنات حتى الموت - ستا وخمسين طعنة ، إحكاماً للتدبير وصماناً للقضاء عليه ودق أحدهم ناقوس الخطر في المدينة ، فسار حشد كبير من المواطنين المسلحين إلى القصر ، واقترحوا تمزيق ماري « إربا (٣٠) » ولكن دارنلي أقنعهم بالتفرق ، وبقيت ماري طوال الليل وطيلة اليوم التالي سجينة السفاحين في قصر هوليرود . وفي نفس الوقت لعبت على فزع دارنلي وحبها لها ، فساعدتها وصحبها ، عندما هربت في الليلة التالية ولجأت إلى دنبار Dunbar وهناك أقسمت أن تنتقم ، فأصدرت نداء إلى مؤيديها المخلصين ، ليهبوا لنجدها والدفاع عنها . وأعدت موري إلى المجلس ، وربما فعلت هذا رغبة في إشاعة الفرقة بين أعدائها .

وكان أكثر من عرضوا مساعدتها وحمايتها فعالية وأثر أجيمس هيرن Hepburn ، إيرل بوثول Bothwell الرابع . وكان شخصية غريبة سيئة الطالع ، ولم يكن وسيماً ، ولكن قوى الجسم والعاطفة والإرادة . مغامراً في البر والبحر ، يحذق الضرب بالسيف والمغول (سيف مستقيم مستدق الرأس ذو حدين) . يرهب الرجال بجرأته الهائلة ، ويفتن النساء بحديثه وتهوره واشتهاره بالقدرة على إغوائهن ، ولكنه كان كذلك على درجة عالية من التعليم ، ومحباً للكتب ، ومؤلفاً ، في وقت لم يكن فيه كثير من النبلاء الإسكتلنديين يعرفون كتابة أسمائهم . وكرهته الملكة أول الأمر ،

لأنه أساء إليها في أحاديثه ، ولكن هذه طريقة في كسب اهتمام المرأة . ولما عرفت صفاته العسكرية عينته قائداً للحدود ، ولما سمعت بدرايته بالسفن والملاحة عينته أمير الأسطول ، ولما علمت برغبته في الزواج من ليدى جين جوردون عجلت بإتمام الزواج .

وكانت الآن تخشى قتلة رتشيوترتاب في اشتراك زوجها في جريمتهم . ومن ثم ولت شطر بوثول تسأله الحماية والنصح . ولم تندفع ماري إلى هذا الرجل على عجل ، بل إن صفات الرجولة فيه : الشجاعة والحيوية والقوة والثقة بالنفس ، كانت هي الصفات التي تصبو إليها طبيعتها الأنثوية ، ولم تجدها في فرنسوا الثاني أو دارنلي . وقد لحظت كيف أن الاحترام لسيفه وبلحنوده أدى بالمتآمرين إلى الاختفاء أو الخضوع ، وسرعان ما أحست بأمان والاطمئنان إلى حد العودة إلى قصر هوليرود ، وعلى الرغم من أن نوكس كان قد أقر نيل رتشيوت ، فإن ماري هدأت من روع القساوسة البروتستانت لبعض الوقت بوضع شروط أفضل لأرزاقهم والإبقاء عليهم . أما عامة الاسكتلنديين الذين لم يكونوا في يوم من الأيام يكون ذرة من الحب للوردات ، فإنهم تعاطفوا معها ، وتمتعت الملكة لعدة أشهر بعد ذلك . بشعبية عامة : وكتب السفير الفرنسي يقول : « لم أر الملكة قط تحظى بمثل هذا الحب والتقدير والتكريم ، أو بمثل هذه الألفة بين رعاياها (٢١) . » على أنها . عندما اقترب موعد الوضع ، انتابها الهواجس واستبدت بها فكرة أنها لا بد أن تقتل أو تخلع ، وهي راقدة لا حول لها ولا قوة ولا عون (٢٢) . ولما وضعت ، في سلام وأمان ، طفلاً ذكراً في ١٩ يونية ١٥٦٦ ابتهجت إسكتلندة بأسرها ، وكأنها تنبأت بأن هذا الصبي سيكون ملكاً على إسكتلندة وانجلترا معاً . وكانت ماري في أوجها .

ولكنها كانت تعسة بدارنلي الذي استاء من تجديد ثبتها بموري ، ومن إعجابها المتزايد ببوثل . وتناثرت الإشاعات بأنه قد يخطف الطفل الملكي ويحكم باسمه (٢٣) . واتهم دارنلي النبلاء بقتل رتشيوت ، وطالب ببراءته هو . فما كان منهم ، انتقاماً منه ، إلا أن بعثوا إلى الملكة بدليل اشتراكه في الجريمة (٢٤) . واقترح أرجيل ولشنجتون وبوثل على الملكة أن تطلقه ، فاعترضت بأن هذا قد يعرض العرش للخطر ،

فأجاب لثنجتون على هذا بأنه من الميسور إيجاد طريقة لتخليصها من دارنلي دون الإضرار بابنها فلم توافق وعرضت أنها تفضل الخروج من إسكتلندا ، وترك الحكم لدارنلي ، وأنهت الحديث بقولها : محذرة ، أريد منكم ألا تفعوا شيئاً يلوث شرفي أو ضميري ، ولذلك أتوسل إليكم أن تتركوا الأمور كما هي ، وأن نحتمل حتى يقضى الله فيها برحمته^(٣٥) . « . وكم من مرة تحدث آنذاك عن الانتحار^(٣٦) .

وفي أكتوبر ١٥٦٦ ، أو نحو ذلك . وقع آجريل وسير جيمس بلفور وبوثول ، وربما كان معهم لثنجتون ، على ميثاق بالتخلص من دارنلي . وترامى إلى مسامع إيرل لينوكس نبأ هذه المؤامرة ، وحذر ابنه دارنلي الذي كان يعيش بعيداً عن ماري ، مع والده في جلاسجو (ديسمبر ١٥٦٦) . وهناك مرض دارنلي ، وكان من الواضح أنه مريض بالجذري ، رغم انتشار إشاعة بأنه مسموم . وفي الوقت نفسه حامت الشبهات حول ماري وعلاقتها الآثمة مع بوثول ، نتيجة لنمو المودة والألفة بينهما . ونعتها نوكس صراحة بأنها بغى عاهرة^(٣٧) . ويبدو أنها اتصلت برئيس الأساقفة هملتون لاتخاذ الترتيبات لطلاق بوثول من زوجته . وعرضت على دارنلي أن تزوره ، ولكنه بعث إليها برد ملؤه التقريع والإهانة . وعلى الرغم من هذا ذهبت إليه (١٢ يناير ١٥٦٧) وأكدت إخلاصها له ، وأيقظت فيه من جديد حبه لها ، وتوسلت إليه أن يعود إلى إدنبره ، حيث وعدت أن ترعاه وتعيد إليه موفور الصحة والسعادة .

وهنا تدخل الرسائل المعروفة باسم « رسائل الصندوق الفضي » إلى مسرح الحوادث لتكمل المشهد . وتتوقف بقية القصة إلى حد ما على صحة تلك الرسائل ، وهذه قضية لا تزال بعد مضي أربعين سنة مثار خلاف ومناقشة . وزعموا أن تلك الرسائل وجدت في صندوق صغير من الفضة كانت ماري قد أهدته إلى بوثول ، ثم استولى عليه ، في ٢٠ يونيو ١٥٦٧ ، من أحد خدام بوثول ، بعض وكلاء النبلاء الذين كانوا يسعون آنذاك إلى خلع الملكة . وفتح الصندوق في اليوم التالي بمعرفة مورتون ولثنجتون وغيرهم من أعضاء المجلس الخاص : وسرعان ما عرضت

بعد ذلك على برلمان إسكتلندا ، ثم أخيراً على اللجنة الإنجليزية التي تولت محاكمة ماري في ١٥٦٨ ، وكانت عبارة عن ثمانية خطابات وبعض شذرات متناثرة من قصائد شعرية ، وكلها بالفرنسية ، غير موجهة لأحد ، ولا تحمل تاريخاً ، ولكنهم زعموا أنها من ماري إلى بوثل . وأقسم اللوردات أعضاء المجلس أمام البرلمان أن الرسائل صحيحة ، ولم يحدث فيها أي تلاعب ، ولكن ماري ادعت أنها مزيفة . والظاهر أن ابنها اعتبرها «حقيقة» ، لأنه أتلّفها (٢٨) ، ولم يبق إلا صور منها . ولما أطلع ملوك الفارة على هذه الصور تصرفوا وكأنما وثقوا من صحتها (٢٩) . وارتابت اليزابث أول الأمر في صحتها ، ثم عادت فسلمت بها في شيء من التردد ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الرسائل ، هو الارتياب في أن امرأة تتوسط في قتل زوجها ثم تفصح في طيش وإسهاب بالغين عن مقاصدها في رسائل تعهد بها إلى رسل يمكن أن يعترض أحد سبيلهم أو يرشوهم ، ثم أنه يبدو من المستحيل أن يحتفظ بوثل بمثل هذه الرسائل التي تدينه وتورطه في جريمة . ثم من غير المحتمل بنفس الأندر أن يوجد في إسكتلندا أحد حتى الداهية لثنجتون نفسه (المشتبه فيه بصفة خاصة) كان في مقدروه أن يزيف أي جزء هام من هذه الرسائل في سحابة اليوم الذي مضى بين الاستيلاء على الصندوق وعرض الرسائل على المجلس أو البرلمان . والرسالة الثانية التي تحمل أكبر إدانة ، مطولة بشكل غريب . وتقع في عشر صفحات بالمطبعة . ولو كانت مزيفة ، لكانت أكبر عملية تزيف غير عادية ، لأن محتواها العاطفي يبدو متطابقاً مع طبيعة ماري ، قدر تطابق الكتابة مع خط ماري . وإنما لتمثل ماري شريكة ضالعة في قتل دارنلي ، مترددة تملؤها الحسرة والأسى ، وتشعر بالعار والحجل من أجل ذلك .

وسمح الملك العليل المتخوف الواثق بأن ينقل عبر إسكتلندا في محفة إيتيم في بيت

(*) يميل القاد إلى القول بأن الرسائل حقيقية في معظمها مع بعض العريف . وذهب لورد أكتون وهو رجل خبير كاثوليكي أمين : إلى أن أربما من هذه الرسائل حقيقية (٤٠) ؛ وأن الرسالة الثانية مزيفة ويمكن قراءة هذه الرسائل في كتاب أندرو لانج *Mystery of Mary Stuart* ؛ ص

قسيس «كيرك أو فيلد» القديم في ضواحي أدنبره، وفسرت ماري عدم نومه فوراً إلى قصر هوليرود بأنها خشيت انتقال العدوى إلى طفلها . وهناك رقد لمدة أسبوعين ، حيث كانت ماري تزوره يومياً . وثابت على تمريره والعناية به حتى استرد صحته ، وكتب إلى والده (٧ فبراير ١٥١٧) « إن صحتي الجيدة هي . . . النتيجة السريعة لحسن رعاية . . . الملكة التي أؤكد لكم أنها كانت طيبة طيلة هذه المدة ، ولا تزال ، تسهر على العناية بي ، على أنها الزوجة الطبيعية المحبة . ومع ذلك لا زلت آمل أن يمن الله علينا بما يدخل الفرح على قلوبنا التي أضنتها المتاعب طويلاً (٤١) » . ولماذا كانت تقوم على تمريره والعناية به طيلة أسابيع ممتدة إذا كانت تعلم أنه كان سيقتل حتماً ؟ « إن هذا جزء من السر الكامن وراء ماري استيوارت . وفي مساء ٩ فبراير تركته لتشهد حفل زفاف إحدى وصيفاتها في هوليرود . وفي تلك الليلة حدث انفجار في بيت كيرك أو فيلد ، وفي الصباح وجد دارنلي ميتاً في الحديقة .

وسلكت ماري في أول الأمر مسلك المرأة البريئة . فحزنت وولوت وأقسمت أن تتأثر . وأمرت أن تجل غرفها بالسواد وأن يحجب عنها الضوء ، وبقيت تعاني الظلام والوحدة . وأمرت بالتحقيق القضائي في الحادث ، وأعلنت عن جائزة من المال والأرض لمن يدلي بأية معلومات تؤدي إلى القبض على الجناة . ولما ظهرت الإعلانات على الجدران في المدينة تتهم بوثل بالقتل ، وكان بعضها يورط الملكة في الحادث ، صدر بيان يهيب بموجهي الاتهام أن يتقدموا بأدلتهم ، ويعد بحماية المبلغين ومكافأتهم ، ورفض واضعو الإعلانات أن يظهروا ، ولكن إرل لنوكس حث الملكة على تقديم بوثل للمحاكمة على الفور . وأيد بوثل هذا المطلب ، وفي ١٢ أبريل مثل أمام المحققين . ولكن لنوكس لم يبرح جلاسجو ، لأنه كان يعوزه دليل الاتهام ، أو أنه كان يخشى جنود بوثل في العاصمة . وانتهى التحقيق إلى تبرئة بوثل ، وأعلن البرلمان براءته رسمياً . وفي ١٩ أبريل أقنع أرجيل وهنتلي ومورتون ولانثي عشر نبيلاً آخرين بتوقيع « عهد آنسلي » يثبتون فيه ثقتهم ببراءته ، ويتعهدون بالدفاع عنه ، ويوافقون على زواجه من ماري التي أولت بوثل آنذاك عطفها وحبها علانية ، وزادت على ما كانت قد أغدقت عليه من هدايا ثمينة .

وفي ٢٣ أبريل زارت ابنها في سترلنج ، وقد قدر لها ألا تراه بعد اليوم أبداً .
وفي طريق عودتها إلى دبلن مع لثنجتون كمن لها بوثول وجنوده وهاجموها وحملوها
بالقوة إلى دنبار (٤ أبريل) . واحتج لثنجتون وهدده بوثول بالقتل . ولكن
مارى أنقذته وأطلق سراحه ، وانضم بعد ذلك إلى أعداء الملكة . وفي دنبار
استؤنفت المفاوضات لطلاق بوثول . وفي ٣ مايو عادت مارى وبوثول إلى أدنبره ،
وأعلنت أنها طليقة من كل قيد ، وفي ٧ مايو منح بوثول الطلاق . وفي ١٥ مايو ،
حين رفض قسيسها الكاثوليكي تزويجهما (هى وبوثول) ، تزوجا وفق الطقوس
البروتستانتية ، أمام أسقف أوركنى الذى كان فيما مضى كاثوليكياً . وانقلبت ضدها ،
بوصفها نفساً هالكة ، أوربا الكاثوليكية التى كانت يوماً تناصرها . ونأى عنها
رجال الدين الكاثوليك ، ونادى القساوسة البروتستانت بنخلعها . ووقف الأهالى منها
موقفاً عدائياً . أما الأقلية التى تعاطفت معها فقد عزت غرامها الطائش إلى جرعة
حب أعطها إياها بوثول .

وفي ١٠ يونية أحاطت عصاة مسلحة بقصر بورثوك Borthwick حيث كانت
تقيم مارى وبوثول ، فهرب الاثنان ، وكانت مارى فى ثياب رجل . وفى دنبار
جمع بوثول ألف رجل ، سعت مارى وبوثول بهم أن يشقوا طريقهم عائدين عنوة
إلى أدنبره ، فاعترضهما فى كاريرى هل (١٥ يونية) قوة مماثلة ترفع راية نقش
عليها صورة دارنلى الميت وصورة الطفل جيمس السادس . وعرض بوثول تسوية
الموضوع بالنزال الفردى ؛ ولكن مارى رفضت أن تسمح له بذلك . وارتضت أن
تستسلم إذا سمح لبوثول بالهرب . وادعت فيما بعد أن زعماء الثوار كانوا قد وعدوها
بالولاء لها إذا لحقت بهم دون قتال (٤١) . ولاذ بوثول بالفرار إلى الشاطىء واتخذ
طريقه إلى الدنمرك . وهناك بعد عشر سنوات قضاه فى السجن بأمر ملك الدنمرك
قضى بوثول نفيه وهو فى سن الثانية والأربعين (١٥٧٨) .
ورافقت مارى معتقلاً إلى أدنبره وسط صيحات الجنود والأهالى . « أحرقوا
العاهرة اقلوها أغرقوها (٤٢) » واحتجزت تحت الحراسة فى دار رئيس البلدية
وهناك ، تحت نافذتها التى ظهرت منها شعشاء الشعر نصف عارية ، استمرت

الجموع تهددها بأقذع العبارات . وفي ١٧ يونية ، رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة نقلت إلى سجن سحيق وأكثر أمناً ، في جزيرة في بحيرة لوك ليفن ، على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشمال من العاصمة . وهناك طبقاً لما رواه سكرتيرها كلود وضعت توأمين قبل الأوان (٤٤) . وأرسلت ملتصقاً إلى الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت التدخل ، وأصدرت اليزابث تعليمات إلى مبعوثها بالوعد بحماية ماري ، وتهديد النبلاء بأشد العقاب إذا مسوا الملكة بأي أذى ، ودعا نوكس إلى إعدام ماري ، وأنذر بأن الله سوف يرسل إلى إسكتلندا بطاعون فظيع إذا أبقيت على حياة ماري (٤٥) . وفي يونية أعاد اللوردات « رسائل الصندوق الفضي » ، وتوسلت ماري إلى البرلمان أن يستمع إليها ، (إلى ماري) ، ولكنه رفض على أساس أن الرسائل أوضحت قضيتها بما فيه الكفاية . وفي ٢٤ يولية وقعت وثيقة تخليها عن العرش ، وعين موري وصياً على ابنها .

وبقيت لنحو أحد عشر شهراً أسيرة في قصر لوك ليفن ، وخففت قيود السجن تدريجياً فتناولت الطعام مع أسرة وليم دو جلاس صاحب القصر ، ووقع أخوه الأصغر جورج في غرامها ، وساعدها على الهرب (٢٥ مارس ١٥٦٨) واعتقلت ، ولكنها في ٢ مايو عاودت المحاولة وأفلحت . ووصلت تحت حماية دو جلاس الصغير ، إلى داخل البلاد حيث التقت بجماعة من الكاثوليك ، وركبت في ظلام الليل إلى لسان فورث ، وعبرته ، وآوت إلى بيت آل هملتون ، وهناك في بحر خمسة أيام ، تجمع ستة آلاف رجل ، وأقسموا أن يعيدوها إلى العرش ، ولكن موري دعا البروتستانت في إسكتلندا إلى حمل السلاح . والتقى الجمعان في لانجسيد بالقرب من جلاسجو (١٣ مايو) ، ودحر جيش ماري السيء التنظيم . وهربت مرة أخرى ، وجدت السير على ظهر جوادها في تمور ، ثلاث ليال سوياً ، إلى دندينان أبي علي خليج سولوأي . وآنذاك أعادت إلى مانحها ، الماسة التي كانت اليزابث يوماً قد أهدتها إلى « أختها العزيزة » ، مع رسالة تقول « إني أعيد تلك الجوهرة إلى ملكتها ، وكانت رمزاً لصداقة ومعوونة موعودتين (٤٦) » . وفي ١٦ مايو ١٥٦٨ عبرت خليج

سولوای فی قارب مکشوف لصید السمک ، ودخلت إنجلترا ، ووضعت مصيرها بين يدي غريمتهما .

٥ - التكفير ١٥٦٨ - ١٥٨٧

ومن مدينة كارليل Carlisle (في شمال غرب إنجلترا) أرسلت ماري رسالة ثانية إلى اليزابث . تطلب مقابلتها لتشرح لها موقفها وساوكها . وكانت اليزابث من حيث المبدأ تناهض مساعدة الثوار ضد أي حاكم شرعي . ومن ثم مالت إلى دعوة ماري لمقابلتها . ولكن مجلس شوري الملكة أوقعها في حيرة وارتباك بما ساق لها من تحذيرات : فلو أن ماري سمح لها بالذهاب إلى فرنسا . لأغرقت الحكومة الفرنسية بارسال جيش إلى اسكتلنده لإعادة ماري إلى العرش . ولإعادة اسكتلنده حليفة كاثوليكية لفرنسا وشوكة في ظهر إنجلترا ، وعند ذلك تساند فرنسا دعوى ماري في عرش إنجلترا بقوة السلاح . كما يساندها الكاثوليك الانجليز . ولو بتيت ماري حرة طليقة في إنجلترا فمن الممكن أن تكون مصدر بؤرة ميسورة الثورة الكاثوليك ، وانجلترا لاتزال في أعماق قلبها كاثولائية في الكثير الغالب . وإذا أرغمت إنجلترا النبلاء الاسكتلنديين على إعادة ملكتهم إلى عرشها فإن حياة هؤلاء النبلاء تتعرض للخطر . كما تفقد إنجلترا حلفاءها البروتستانت في اسكتلنده . وربما اتفق سيسل مع هلام في الرأي القائل بأن احتجاج ملكة الاسكتلنديين أو تقييد حريتها قسرا . إنما هو خرق لشكل قانون « طبيعي أو عام أو محلي (١٧) » . ولكنه أحس بأن مسئوليته التي تطغى على كل ماعداها . هي حماية إنجلترا . ولما كان من إحدى مهام الدبلوماسية أن تخضع على الواقعية ثوب الاخلاقية . فقد أبلغت ماري أنه ينبغي عليها قبل الاستجابة إلى طلبها في اللقاء مع الملكة اليزابث . أن تبريء نفسها من عدة اتهامات أمام لجنة تحقيق . فأحابت ماري بأنها ملكة ، ولا يمكن أن تحاكم أمام مندوبين عاديين ، وبخاصة من بلد آخر . وطلبت أن تكون لها حرية العودة إلى اسكتلنده أو الذهاب إلى فرنسا . كما طالبت أن تلتقى بمورتون ولشنجتون في حضرة اليزابث . ووعدها بإثبات إدانتهما في قتل دارنلي . وفي ١٣ يوايه ١٥٦٨ أمر المجلس الانجليزي بنقلها من كارليل (لقونها الشديد من

الحدود) إلى قصر بولتون بالقرب من يورك. وهناك خضعت ماري للسجن البسيط بناء على وعد اليزابث: « ضعي نفسك بين يدي دون تحفظ ، ولن أتي إلا إلى أي شيء يبيء إليك . وسيكون شرفك في مأمن من أي خدش . ولسوف تعادين إلى عرشك(٤٨) » . ولما هدأت اليزابث من روع ماري بهذا الشكل ، وافقت الأخيرة على تعيين ممثلين لها في لجنة للتحقيق : وحاولت أن ترضي اليزابث بإدعائها قبول المذهب الانجليكاني ، ولما أنها أكدت لفيليب ملك أسبانيا أنها لن تتخلى عن قضية الكاثوليكيا(٤٩) . ومن ذلك الوقت باتت ماري واليزابث فرسي رهان في سباق للنفاق ، الأولى تلتمس لنفسها العذر بأنها سجين ملكي خانوه وغدروا به ، والثانية بأنها ملكة تكثفها المخاطر .

واجتمعت لجنة التحقيق في يورك في اكتوبر ١٥٦٨ . ومثل ماري فيها سبعة أشخاص أهمهم جون لازلي أسقف روس الكاثوليكي ، ولورد هريز Herries من إقليم المستنقعات الغربية في اسكتلنده ، وهو كاثوليكي أيضا ، وعينت اليزابث ثلاثة من البروتستانت . هم دوق نورفولك ، وارل سسكس ، وسير رالف سادلر . ومثل أمام اللجنة موري ومورتون ولثنجتون الذين عرضوا « رسائل الصندوق الفضي » على الأعضاء الانجليز سرا . وقالوا إنه إذا أقرت ماري أن يكون موري وصيا على العرش ، وقبلت أن تعيش في إنجلترا على راتب تقاعد كبير تدفعه لها اسكتلنده ، فإن تذايع الرسائل . ولكن نورفولك - الذي كان يحلم بالزواج من ماري ، ومن ثم يصبح ملكا على إنجلترا بعد وفاة اليزابث ، رفض هذا العرض . أما سسكس فقد كتب إلى اليزابث بأنه يبدو من المرجح أن تكسب ماري قضيتها(٥٠) .

وأمرت اليزابث بأن تنتقل المحاكمة إلى وستمنستر . وهناك وضع موري الرسائل أمام المجلس ، وانقسم الرأي حول حجج الوثائق ، ولكن اليزابث قضت بأنها لن تسقبل ماري قبل أن تثبت عدم صحتها . وطلبت ماري أن تطلع على الرسائل الأصلية أو صورتها ولكن اللجنة رفضت هذا الطلب ، ولم تطلع ماري قط على أصل الرسائل أو صورتها(٥١) . وفي ١١ يناير ١٥٦٩ انفضت اللجنة دون أن تصدر قرارا . واستقبلت اليزابث موري ثم أعيد إلى اسكتلنده ومعه الرسائل . ونقلت

مارى - وهى غاضبة متحدية إلى سجن أشد قيودا فى تبرى Tutbury على نهر ترنت ، واحتجت الحكومات الأجنبية ، ولكن اليزابث أجابت بأنهم لو اطلعوا على الأدلة التى قدمت إلى اللجنة لا اعتبروا معاملتها لمارى لينة هينة ، لا قاسية (٥٢) . وأشار السفير الأسباني على فيليب بغزو إنجلترا ووعده بمعاونة شمال إنجلترا الكاثوليكي له ، ولكن فيايب تشكك فى مثل هذه المعاونة ، كما أنذره دوق ألفا بأن اليزابث قد تأمر بقتل مارى عند أول بادرة للغزو أو الثورة .

وقامت الثورة . فى ١٤ نوفمبر ١٥٦٩ قاد ارل نورثمبرلند وارل وستمورلند جيشا قوامه ٧٠٠٥ من الثوار إلى درهام ، وأطاحوا بمكتب الطائفة الانجليكانية وأحرقوا كتاب الصلوات العامة ، واستردوا المذبح الكاثوليكي ، واستمعوا إلى القداس ، ودبروا هجوما على تبرى لاطلاق سراح مارى ، ولكن اليزابث فوتت عليهم الفرصة بنقل مارى إلى كوفنترى فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٩ . وعجل ارل سسكس على رأس جيش معظمه من الكاثوليك ، باخماد الثورة . وأمرت اليزابث « بشنق المقبوض عليهم من المتوردين وأتباعهم المتواطئين معهم ، وألا تنقل جثثهم بل تظل فى أماكنها حتى تتساقط اربا (٥٣) » . وبهذا أمكن التخلص من نحو ستمائة رجل وصدورت أملاكهم للتاج ، وفر نورثمبرلند ووستمورلند إلى اسكتلنده . وفى فبراير ١٥٧٠ قاد ليونارد داكريس ثورة أخرى من الكاثوليك ، ولكنه هزم أيضا ، وهرب عبر الحدود .

وفى يناير ١٥٧٠ كتب نوكس إلى سيسل يشير عليه باصدار أمره بقتل مارى فورا ، « فانك إذا لم تستأصل الجذور عادت الأغصان التى تبدو ذابلة متكسرة إلى النمو والازدهار (٥٤) » ، وكان قد فرغ آنذاك من كتابه « تاريخ الاصلاح الدينى فى مملكة اسكتلنده » - وهو كتاب لا يدعى عدم التحيز : قصصى غير دقيق ، ولكنه مفعم بالحوية زانخر بالمعلومات عن سير الأفراد ، ذو أسلوب طريف فردى لاذع لأنه صادر عن واعظ لا يخشى فى الحق لومة لائم ، يصارح كلا بما فيه دون مواربة . وهو رجل موجه قاس ولكنه عظيم ، حقق حلمه فى القوة والسيطرة أكثر مما فعل كل من ،

وكان يبغض من كل قلبه ، ويناضل في بسالة وجرأة ، ويستنفذ آخر خفقة من الطاقة الحبارة إلى حد لا يصدق لارادته الحديدية . وما جاء عام ١٥٧٢ حتى كان قد استنزف قوته ، فلم يعد يستطيع المشى - إلا إذا أعانه عليه أحد . ولكنه كان يلوذ بمن يأخذ بيده يوم الأحد حتى يصل إلى المنبر في كنيسة سانت جيلز St. Giles وألقى آخر موعظة له في ٩ نوفمبر ١٥٧٢ ، ورافقه كل شعب الكنيسة إلى مسكنه ، ووافاه الأجل في ٢٤ نوفمبر ، وهو في السابعة والستين من العمر ، فقيرا كيوم ولدت أمه . « انه لم يتجر بكلمة الرب » وترك للأعقاب أن تحكم عليه . لن يدرك هذا العهد الجحود ماذا كان بالنسبة لبلدى ، ومع ذلك فإن الأجيال القادمة سوف تضطر أن تكون شواهد عدل على الحقيقة . (٥٥) إن قلة من الناس هي التي أثرت تأثيرا حاسما في معتقدات الشعب ، وإن قلة من أهل عصره ضارعتة في تشجيعه للتعليم وفي التعصب وفي ضبط النفس . ولقد اقتسم نوكس ومارى روح اسكتلنده ، وكان هو يمثل الاصلاح الدينى ، وهى تمثل عصر النهضة ، واندحرت مارى لأنها - شأنها شأن اليزابث - لم تعرف كيف تزوج بينهما :

وحاولت مارى - مثل نمر قلق هائج حبيس - كل إمكانات الهرب ووسائله . وفي ١٥٧١ قام روبرتودى ريدولفى ، وهو فلورنسى من أصحاب المصارف ذوى النشاط فى لندن - قام بدور الوساطة بين مارى والسفير الأسباني ، وأسقف روسى ، ودوق ألفا ، وفيليب ملك أسبانيا ، والبابا بيوس الخامس . واقترح أن يرسل ألفا على انجلترا قوات أسبانية من الأراضى الوطیئة ، وأن تغزو انجلترا فى نفس الوقت قوة كاثوليكية من اسكتلنده ، وأن تخلع اليزابث عن العرش ، وتنصب مارى ملكة على انجلترا واسكتلنده ، وأن يتزوجها نورفولك بهذه الخطة ، فلم يوافق عليها موافقة صريحة ، ولم يكشف عنها لأحد . وأقرتها مارى بصفة مؤقتة . (٥٦) ودفع البابا لريدولفى بعض المال على ذمة المشروع ، ووعد بأن يوصى فيليب بقبوله ، ولكن فيليب علق رأيه على موافقة ألفا الذى دمع المشروع بالسخافة والحرق ، على أنه مشروع خيالى ، وأنه لن ينتهى الا بكارثة على أصدقاء مارى . وضيقت رسائل ريدولفى ونورفولك لدى من قبض عليهم من خدم مارى والدوق . وأودع السجن

نورفولك وروس وعدد من النبلاء الكاثوليك . وحوكم نورفولك بتهمة الخيانة ،
وصدر الحكم عليه . وترددت أليزابث في التصديق على حكم الإعدام على مثل هذا
النبيل البارز العظيم . ولكن سيسل والبرلمان الانجليزى وأقطاب الكنيسة الانجليكانية ،
طالبوا بإعدام نورفولك ومارى كليهما . واتخذت اليزابث حلا وسطا فأرسلت نورفولك
إلى السجن (٢ يونية ١٥٧٢) . ولما ترامت إلى إنجلترا أبناء مذبحه سانت برثلميو
(٢٢ أغسطس) تعالت الصيحات من جديد ، للمطالبة بإعدام ماري (٥٨) . ولكن
اليزابث أصرت على الرفض .

ولن نستطيع أن ندرك مدى يأس ماري ومدى شعورها بتداحة الذنب إلا إذا
نذكرنا أنها قضت في الأسر قرابة تسعة عشر عاما . وكان مكان احتجازها يتغير ،
باستمرار ، مخافة أن العطف الذى يشعر به نحوها أهالى البلاد المجاورة أو سجانوها ،
يأتى بمؤامرات أخرى أو يغرى بها ، وكانت شروط احتجازها تتسم بالروح الانسانية ،
حيث سمح لها بتسلم معاشها - الفرنسى - ١٢٠٠ جنيه سنويا - وأعطتها الحكومة
الانجليزية مبلغاً محترماً للطعام والعلاج الطبى والحدم ووسائل الترفيه وسمح لها بحضور
القداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية ، وحاولت أن تشغل الساعات الطوال
بالتطريز والقراءة ، وفلاحة البستان واللعب مع كلابها المدللة . ولما تلاشت آمالها في
الحرية ، فقدت حرصها على العناية بنفسها ، ولم تريض إلا قليلا ، وأصبحت مترهلة
بمدينة . وأصيبت بالروماتيزم ، وتورمت رجلاها في بعض الأحيان إلى حد لا تستطيع
معه المشى . وفي ١٥٧٧ ، وهى بنت الخمسة والثلاثين عاما فقط ، ابيض شعرها
فغطته بشعر مستعار .

وعرضت ، فى يونية ١٥٨٣ ، أن تنزل عن أى حق لها فى تاج إنجلترا ، إذا
أطلق سراحها ، وألا تتصل بمتآمرين قط ، وأن تعيش فى أى مكان فى إنجلترا
تختاره اليزابث ، وألا تبعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال . وأن تخضع
لرقابة جيرانها واشرافهم . ولكن أشير على اليزابث بالألا تثق فيها .

واستأنفت ماري مشروعات الهرب ، وبعده وسائل يائسة متنوعة سعت إلى الاتصال

بسفري فرنسا وأسبانيا وحكومتيهما ، وبأنصارها في اسكتلنده وبممثلي البابا . وكانت الرسائل تهرب منها وإليها في ثياب الغسيل وفي النكتب ، وفي العصي ، وفي الشعر المستعار ، وفي بطانة الأحذية . ولكن جواسيس سيسل وولسنيهام كشفوا عن كل مؤامرة في حينها . وحتى بين الطلبة والقساوسة في كلية الجزويت في ريمس ، كان لولسنيهام عملاء ووكلاء يبلغونه بكل شيء .

ولكن الهالة الرومانسية التي أحاطت بماري الأسيرة حركت انشفقة والعطف في قلوب كثير من الشبان الانجليز ، كما ألهبت حماسة الشبان الكاثوليك . وفي ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروكمورتون ، وهو كاثوليكي ، وابن أخت المغفور له سفير الزابث لدى فرنسا ، دبر مؤامرة أخرى لإطلاق سراح ماري ، ولكن سرعان ما كشف أمره وعذب حتى اعترف . وصرخ مولولا : « لقد كتمت كل أسرارها ، تلك التي كانت أعز ما لدى في هذه الدنيا بأسرها (٥٩) » . ويات بضربة من فأس الجلاد وهو في سن الثلاثين .

وبعد ذلك بعام واحد ، أقنع وليم باري parry ، وهو أحد الجواسيس الذين يعملون في خدمة سيسل ، أقنع القاصد الرسولي في باريس ، بأن يقدم إلى جريجوري الثالث عشر طلبا بالغفران التام ، على أساس أنه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح ماري ستيوارت وإعادة إنجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية . ورد وزير البابا (٣٠ يناير ١٥٨٤) بأن قداسته اطلع على التماس باري ، وابتهج لما اعتمز القيام به ، وأنه سيرسل إليه الغفران المطلوب ، ويكافئه على جهوده (٦٠) . وحمل باري هذا الرد إلى سيسل . واتهم جاسوس انجليزى آخر - يدعى ادموند نفيل - أنهم باري بتحريضه على قتل الزابث . وقبض على باري ، واعترف ، فشنق ، ومزقت أوصاله (٦١) ، وهو لا يزال ينبض بالحياه .

ولما اشتد غضب مجلس الملكة الزابث بهذه السلسلة الطويلة من المؤامرات . وجزع وفزع لمقتل وليم أورانج ، صاغ « التعهد بالتكاتف والترابط » ، يتعهد الموقعون عليه ألا يرتضوا قط خلفا لمليكتهم ، أى شخص جرت لمصلحته أية محاولة للقضاء على الزابث ، وأن يعذبوا حتى الموت أى فرد اشترك في مثل هذه

المحاولة . ووقع هذا التعهد كل أعضاء المجلس ومعظم أعضاء البرلمان ، كما وقعه ذوو
المكانة في طول إنجلترا وعرضها ؛ وبعد سنة أسبغ البرلمان على هذه الوثيقة صفة
القانون النافذ المفعول أو المعمول به .

ولكن هذا لم يحل دون مزيد من المؤامرات . ففي ١٥٨٦ أغرى جون بللارد
وهو قسيس كاثوليكي روماني ، أنتوني بابنجتون ، وهو شاب ثري كاثوليكي ،
أغراه بتدبير مؤامرة لقتل اليزابث وغزو إنجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضي
المنخفضة ، وتنصيب ماري على العرش . وكتب بابنجتون إلى ماري بهذا ، وأبلغها
أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من مغتصبة العرش ، وسألها
إقرارا للخطة . وفي خطاب مؤرخ في ١٧ يولية ١٥٨٦ قبلت ماري مقترحات
بابنجتون ، ولم توافق موافقة صريحة على قتل اليزابث ، ولكنها وعدت بالمكافأة
عند نجاح المشروع (٦٢) . وكان الرسول الذي عهد إليه سكرتيرها بحمل هذا الرد
عميلا سريريا لولسناهم . فأخذ صورة من الرسالة وأرسلها إلى لولسناهم ، وأرسل
أصل الرسالة إلى بابنجتون . وفي ١٤ أغسطس قبض على بابنجتون وبللارد ،
وبعد ذلك بقليل أودع السجن نحو ثلاثمائة من أبرز الكاثوليك ، واعترف الزعمان ،
وأغرى سكرتير ماري بالاعتراف بصحة خطابها (٦٣) . وأعدم ثلاثة عشر من المتآمرين ،
وأطلقت الصواريخ النارية في سماء لندن ، ودقت النواقيس ، وأنشد الأطفال
التسابيح شكرا لله على نجاة الملكة اليزابث . ودوت الصيحات في إنجلترا البروتستانتية
تطالب بأوت ماري :

وفتشت حجرات ماري ، وجمعت كل أوراقها ، وفي أكتوبر نقلت إلى قلعة
فوذرنجاي Fotheringay . وهناك جرت محاكمتها أمام لجنة مؤلفة من ثلاثة وأربعين
من النبلاء . ولم يسمح لها بمددب من يدافع عنها ، ولكنها دافعت عن نفسها في عزم
وإصرار . وأقرت باشتراكها في مؤامرة بابنجتون ، ولكنها أنكرت إقرارها بالقتل ،
واحتجت بأنها ، كإنسان سجن ظلما وعدوانا لمدة تسعة عشر عاما ، لها كل الحق
في تخليص نفسها بأية وسيلة كانت . وأدانتها اللجنة بالإجماع . وطلب البرلمان إلى
اليزابث أن تصدر أمرا بإعدامها . ولكن هنري الثالث ملك فرنسا قدم طلبا مهذبا

للرأفة . ولكن اليزابث قالت إن مثل هذا الطلب جاء بسند ضعيف من حكومة ذبحت
آلافاً من البروتستانت دون محاكمة . ودافع معظم إسكتلنده الآن عن مليكتهم ،
ولكن ابنها قام بوساطة تعوزها الحماسة ، حيث ارتاب في أنها أنكرته وتبرأت منه
في وصيتها لأنه بروتستانتى . وأوعز ممثله في لندن إلى ولسنجهام إلى أنه - ابنها ،
جيمس السادس - ولو أنه حريص على ألا تقتل أمه ، سوف يعتبر الموضوع منتهياً ،
ويقنع بأن يثبت البرلمان الانجليزى حقه في أن يخلف اليزابث على العرش ، وتزيد
اليزابث من مبلغ المعاش الذى ترسله إليه . وضيع الإسكتلندى المحاذر الحريص -
الوقت سدى ، بدافع من الطمع شديد ، إلى حد أن أهالى إدنبره كانوا يطلقون
عليه صيحات الاستهزاء والاستهجان ، وينعبون كالبوم في الشوارع (٦٤) . ولم يبق
بين ماري وبين الموت إلا تردد اليزابث .

وانقصت قرابة أشهر ثلاثة تبحر الأيام فيها أذيالها متثاقلة ، قبل أن تحزم اليزابث
المهوكة المزعجة أمرها ، ثم لم تفعل شيئاً . كانت قادرة على السباحة والرحلة :
ولكنها سئمت حياة الفزع من أن يعاجلها بالقتل في أية لحظة أنصار امرأة تدعى حقاً
في عرشها ، كما وضعت في اعتبارها خطر غزو إنجلترا من جانب فرنسا وأسبانيا
وإسكتلنده احتجاجاً على إعدام ملكة ، كما فكرت في إمكان موتها هي ، ميتة
طبيعية أو بيد أئيمة ، وفي وقت يتيسر فيه لمارى وللكاثوليكية أن تراثا إنجلترا .
وحثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام ، ووعدها بأن يتحمل هو كل
مستوىة نتائجه ، وفكرت في أن تتفادى هي الحسم في الموضوع بالإلماع إلى سير
أمياس بولت Amias Paulet . المعين لحراسة ماري ، بأنه يمكنه أن يضع جداً لهذا
الارتباك . بأن يأمر بإعدام ماري ، بناء على مجرد فهم شفوى بأن الملكة أو مجلسها
يرغبان في ذلك . ولكن بولت أبى أن يتصرف دون أمر كتابى من اليزابث ، وأخيراً
وقعت التصديق على الحكم ، وحمله سكرتيرها وليم دافيسون إلى المجلس الذى
أرسله في الحال إلى بولت قبل أن تغير اليزابث رأيها .

أما ماري التى كانت طيلة هذا الإمهال الطويل ، قد عاودها الأمل ، فإنها لم
تصدق النبأ في بداية الأمر ، ثم واجهته بشجاعة . وكتبت إلى اليزابث رسالة مؤثرة ،
(م - ١٣)

سألها فيها أن تسمح « لخدمى البؤساء الذين باتوا بلا صديق أو معين ». أن ينقلوا رفاتى ليدفنوها فى أرض مقدسة ، مع سائر ملكات فرنسا ، وقيل إنها فى صباح اليوم الذى أعدمت فيه ، نظمت باللاتينية قصيدة قصيرة ، تشيع فيها كل الحماسة والرشاقة اللتين تتسم بهما ترانيم العصور الوسطى :

يا إلهى لقد وضعت كل أملى فىك

أنقذنى الآن يا يسوع العظيم ،

إنى أرسف فى الأغلال وأعانى أشد الآلام ، إنى أضرع إليك ،

متلهفة باكية راکعة ، أسبح بحمدك ، وأتوسل إليك

أن تخلصنى .

وطلبت أن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الخاص الكاثوليكي ، فلم تجب إلى طلبها ، وأحضر لها سجانوها بدلامنه قسيساً أنجليكانياً ، فرفضته : وارتدت الملابس الملكية لتقابل بها الموت ، وصفت شعرها المستعار بعناية ، وغطت وجهها بخمار أبيض ، وتدلّى من عنقها صليب ذهبى ، كما كان فى معصمها صليب من العاج : وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من شهود إعدامها ، فقيل لها إنهن قد يحدثن اضطراباً ، فوعدت بأنهن إن يفعلن شيئاً . فرخص لها أن تصحب اثنتين منهن وأربعة رجال : وسمح لنحو ثلاثمائة من الإنجليز بأن يشهدوا تنفيذ الإعدام ، فى القاعة الكبرى فى حصن فوذرنبجاي (٨ فبراير ١٥٨٧) وسألها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها ، وتلقياها منها . ولما بدأت وصيفتاها فى الصراخ والعويل منعتهما قائلة « لقد تعهدت بالنيابة عنكما » ، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها فى المقصلة ، وسقط الشعر المستعار عن رأسها المفصول عن جسدها ، وكشف عن شعرها الأشيب : وكانت فى سن الرابعة والأربعين .

الصفح والمغفرة للجميع ، والعفو والمغفرة للمارى التى بذلت الجهد بشجاعته لتكون ملكة عادلة بهيجة على حد سواء : ولسنا نعتقد أنها ، وهى التى سهرت طويلاً على العناية بزوجها حتى استرد صحته وعافيته ، كانت قد رضيت عن قتله ، ويمكن أن نصفح عن المرأة الشابة التى تخلت عن كل شىء مقابل حب مهماً كان

طائشاً ، وينبغي أن نرثي للمرأة البائسة التي تخلى عنها أصدقاؤها ، والتي قدمت إلى إنجلترا تلتمس مارجاً وملاذاً ، فلاقت بدلاً منه تسعة عشر عاماً في غيابة السجن ، ويمكننا أن ندرك محاولاتها الجبارة لاسترداد حريتها . كما يمكن كذلك أن نغفر للملكة العظيمة (اليزابث) التي أصر مستشاروها على أن احتجاز ماري بين جدران السجن ، أمر حيوي بالنسبة لأمن إنجلترا وسلامتها ، والتي رأت أن حياتها وسياستها مهدتان دوماً بالموامرات من أجل إطلاق سراح منافستها ، ماري ، وإعادةها إلى العرش ، والتي أطالت مدة هذا الأسر البغيض القاسي ، والتي لم تقنع نفسها بإنهائه بالتصديق على إعدام ماري . وكانت امرأتين نبيلتين ، الواحدة منهما نبيلة سريعة الانفعال ، والأخرى نبيلة وحكيمة عاقلة مع شيء من التردد . وترقد كلتاهما الآن في انسجام ، الواحدة قرب الأخرى ، في كنيسة وستمنستر وقد سويت الخلافات بينهما ، في ظل الموت والسلام :